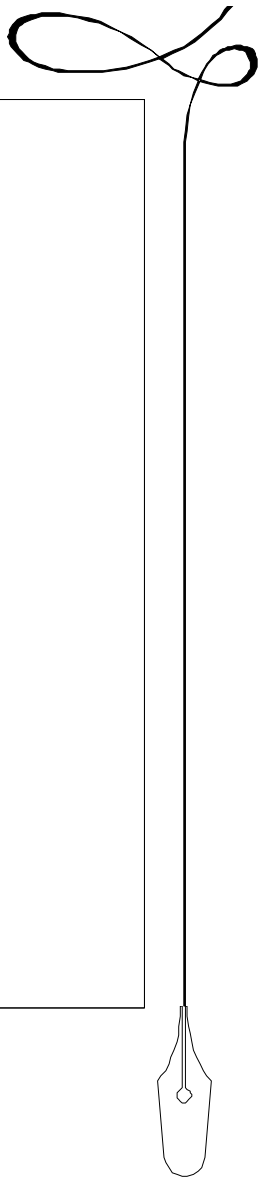

هلموا إلى ربكم

طبعة جديدة

مجدي الهلالي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

رقم الإيداع: ١٦٨٨٠/ ٢٠١٠م

الترقيم الدولي: I.S.N.B

978-977-441-788-9

مركز السلام للتجهيز الفني

عبد الحميد عمر

[illegible]

مؤسسة اقرأ

للنشر والتوزيع والترجمة

١٠ ش أحمد عمارة - بجوار حديقة الفسطاط

القاهرة ت: ٢٥٣٢٦٦١٠ محمول: ٠١٠٥٢٢٤٢٠٧- ٠١٢٦٣٤٤٠٤٣

www.Iqraakotob.net

E-mail:iqraakotob@yahoo.com

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
رب يسر وأعن يا كريم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار على نهجه، واتبع هداه إلى يوم الدين، أما بعد:

فلا بد للمسلم في هذه الحياة من وقفات يقفها مع نفسه، يعيد فيها تقييم أموره، ويتفكر في مصيره، ويصحح بها مساره، فقطار الحياة يسير بنا شئنا أم أبينا، ولا بد من وقت نتركه فيه كما تركه من سبقنا.

لا بد من وقت يحدث فيه اللقاء مع الموت ﴿**قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاَقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [الجمعة: ٨].

لقد سبقنا إلى القبور أناس كثيرون كانت لهم أحلام وطموحات مثلنا، وكانوا غارقين في الدنيا، يُمسون ويصبحون عليها، وفجأة جاءهم ما لم يكونوا يتوقعونه، جاءهم ملك الموت يريد قبض أرواحهم، فألجمتهم المفاجأة وعقدت ألسنتهم الدهشة، فهذا أمر لم يضعوه أبدًا في حساباتهم، فتخطيطهم لمستقبلهم الدنيوي لم يشمل إمكانية حدوث الموت في هذا التوقيت.

في هذه اللحظات انكشفت حقيقة الوجود في الدنيا أمام أعينهم، وأنها مرحلة من مراحل رحلة طويلة.. رحلة العودة إلى الله فامتلأت نفوسهم حسرة وندمًا، وازدادت أمانيهم في العودة إلى الدنيا ولو للحظة يصلحون فيها ما أفسدوه.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۝ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

فإن كان هذا هو حال الكثير ممن سبقنا إلى لقاء الموت فلماذا لا نعتبر بهم حتى لا نقع فيما وقعوا فيه؟

إن من فضل الله علينا أننا ما زلنا في الأمنية التي يتمناها هؤلاء في العودة إلى الدنيا.. فهل لنا أن نفعل ما يتمنون فعله لو كانوا مكاننا؟!

هل لنا أن نبدأ في تصحيح المسار، ووضع الدنيا في حجمها الصحيح، والتعامل معها على أنها مزرعة للآخرة؟!﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ [الشورى: ٤٧].

نسأل الله عز وجل أن يعيننا على ذلك وأن يجعل من هذه الصفحات وسيلة نافعة تذكرنا بحقيقة وجودنا في الدنيا وبما يجب علينا أن نفعله فيها.

والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

تمهيد

هل نكره الموت؟

من الأمور القليلة التي يجتمع عليها الناس مع اختلاف ثقافاتهم وأعمارهم: كراهية الموت، وعدم تمني وقوعه، فالاكتئاب يعلو الوجه كلما تضمن مجلس من المجالس ذكر هذا الغائب بل ويسارع البعض بتحويل مسار الحديث إلى موضوع آخر يبعدهم عنه، ويشغلهم بغيره.

ومن يدَّعي أنه لا يكره الموت، وأنه يتمنى قدومه ليرتاح من الدنيا ومتاعبها فما عليه إلا أن يتذكر حجم الضيق والحزن الذي ينتابه كلما رأى حادث سيارة أو انهيار بيت، أو اندلاع حريق وليتذكر حجم الرعب الذي يعتريه كلما سمع عن شخص أصيب بمرض من الأمراض الخطيرة كالأورام الخبيثة وغيرها.

إن مبعث الضيق والألم الذي نشعر به في مثل هذه المواقف ليس فقط من حزننا على أصحابها، بقدر ما هو خوفنا على أنفسنا فمجرد تخيل الواحد منا نفسه مكان هذا المصاب أو ذلك الميت

كفيل بأن يجعل الصدر ضيقًا، والقلب واجفًا، والعقل شاردًا، ولم لا؟ والكل قد رتب أمره على أن الحياة ممتدة أمامه، فالشاب يمني نفسه بأنه سيظل على قيد الحياة إلى ما بعد الستين والسبعين مثل والده وجده، والكبير يعيش على أمل البقاء إلى ما بعد التسعين مثل فلان وفلان.. فالجميع راغب في الدنيا، وكاره للموت.

ماذا بعد الموت؟

هذه المظاهر التي تدل على كراهيتنا للموت تترجم فهمنا الخاطئ للمرحلة التي تليه، فالنعيم في مخيلة الغالبية منا ينتهي بانتهاء الأجل فلا شيء بعده سوى قبر مظلم ليس فيه إلا الدود والتراب والعظام الرميم.. الليل فيه كالنهار، والصيف كالشتاء.. لا جليس فيه ولا أنيس، فمن ذا الذي يتمنى أن يترك الدنيا بزينتها ومباهجها، ويذهب إلى هذا المكان؟!.

ومما رسخ هذا التصور في الأذهان ما نشاهده من أحوال الميت بعد نزع روحه، وقد تصلبت أطرافه، وشخص بصره، واستسلم جسده ليد المغسل، فلا كلام، ولا حراك، ولا اعتراض، وبعد تكفينه يحمل على الأكتاف فيصلى عليه ثم يوضع في حفرة ضيقة من الأرض ويهال عليه التراب، فلا منفذ يبقى للهواء ولا للضياء ثم بعد فترة يتحلل اللحم ويتساقط من فوق العظام، وشيئًا فشيئًا

تتحول تلك العظام إلى تراب.

تلك هي صورة القبر في مخيلة الكثير منا مما أدى بنا إلى كراهية الموت وزيادة تعلقنا بالدنيا والعمل على الاستمتاع بها قدر المستطاع.

والحقيقة أن الأمر غير ذلك فلقد أخبرنا الله عز وجل في كتابه بأن الدنيا ما هي إلا شوط من أشواط رحلة طويلة بدأت من عنده – سبحانه وتعالى – وتنتهي إليه كذلك ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

فالدنيا ليست هي نهاية المطاف، والقبر ليس دائمًا بهذه الصورة الموحشة التي تتخيلها الأذهان.

ولكي تكتمل الصورة لدينا لا بد من التعرف على تلك الرحلة منذ بدايتها حتى نهايتها، لتكون هذه المعرفة منطلقًا لحسن التعامل مع المرحلة التي نتواجد فيها.. مرحلة الحياة الدنيا.

***

الفصل الأول

الرحلة إلى الله

- خلق الإنسان
- الدنيا دار امتحان
- الحياة البرزخية
- يوم الحساب
- نهاية الرحلة

خلق الإنسان

خلق الله عز وجل جميع المخلوقات وجعلها منقادة لعبادته.. تسبحه وتسجد له.

قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ**﴾ [النور: ٤١].

ومع عبادة الكون كله لله وتسبيحه الدائم له، فإنه سبحانه وتعالى أراد أن يخلق مخلوقًا جديدًا يعبده باختياره وبإرادته الحرة، بعد أن يعطيه عقلًا لا يوجد مثله لدى سائر المخلوقات، ويودع فيه من الإمكانات ما يستطيع من خلالها أن يصل لمعرفته سبحانه لدرجة لم يصل إليها مخلوق من قبل، وبجانب هذا العقل توجد النفس التي تحب الشهوات ولا تنظر إلى عواقب الأمور... فكان خلق الإنسان.

السجود لآدم:

أمر الله عز وجل الملائكة بالسجود لهذا المخلوق الجديد

تشريفًا وتكريمًا له، فانصاعت كلها للأمر إلا إبليس.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

لماذا لم يسجد إبليس لآدم؟! ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

فالكبر إذن هو الذي منعه من السجود.

فماذا كانت النتيجة؟!

كان العقاب الأليم: اللعن والطرد من رحمة الله، والعقوبة بالحبس الأبدي في النار ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الأعراف: ١٨].

عداوة إبليس:

عرف إبليس مصيره، وبدلًا من أن يبادر بالتوبة مما فعله، ازداد حقدًا وحسدًا وكراهية لآدم عليه السلام وطلب من الله عز وجل أن يمهله في تنفيذ العقوبة مدة الحياة الدنيا لينتقم لنفسه من آدم وبنيه، ويسوقهم معه إلى النار ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۞ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۞ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [ص: ٧٩، ٨١].

وبعد أن تمت الموافقة على طلبه، أقسم اللعين بعزة الله أن يعمل جاهدًا طوال هذه المهلة على إغواء بني آدم وصدهم على الصراط المستقيم بكل الطرق الممكنة ﴿**قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ**﴾

[الأعراف: ١٦، ١٧].

إبليس والشجرة المحرمة:

أسكن الله عز وجل آدم الجنة وجعلها داره، وخلق له زوجته حواء، وأباح لهما الجنة كلها إلا شجرة واحد ﴿**وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ [البقرة: ٣٥].

بدأ إبليس عمله مباشرة، فهو لا يريد أن يضيع وقتًا من المهلة التي أخذها، واستهل ذلك بالوسوسة إلى آدم وزوجه بالأكل من الشجرة المحرمة، وادعى بأنها شجرة الخلد والملك، وأقسم لهما بالله على ذلك.

﴿**فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۞ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ**﴾

[الأعراف: ٢٠، ٢١].

لم يكن آدم وزوجه يظنان أن هناك من يقسم بالله كاذبًا، فأكلا من الشجرة لتنكشف لهما عوراتهما وينتصر عليهما اللعين... حينئذ شعر آدم وزوجه بعظم الجرم الذي ارتكباه ﴿**فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۞ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [الأعراف: ٢٢، ٢٣].

الهبوط إلى الأرض:

ندم آدم وزوجه ندمًا شديدًا، وتابا توبة صادقة إلى الله فقبل سبحانه وتعالى توبتهما ﴿**فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾ [البقرة: ٣٧].

ولكن لا بد من اختبار آخر كي يعودا إلى دارهما - الجنة – مرة أخرى، فكانت الأرض هي مكان الاختبار ليهبطا عليها وتبدأ منها رحلة العودة، ويهبط معهما إبليس ليستمر في عمله الذي طلب من أجله المهلة ﴿**قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ۞ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ**﴾ [الأعراف: ٢٤، ٢٥].

هبطوا جميعًا إلى الأرض ليبدأ الصراع بين الحق والباطل.

المشهد العظيم:

قدر الله سبحانه وتعالى لآدم عددًا محددًا من الذرية يهبطون تباعًا إلى الأرض ليؤدوا الاختبار – اختبار العودة إلى الجنة – وقبل هبوطهم أخذ عليهم جميعًا العهد والميثاق على عبادته سبحانه وتعالى ولقد وافق الجميع على ذلك، وشهدوا بأنفسهم على هذا العهد ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۞ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ**﴾ [الأعراف: ١٧٢ ، ١٧٣].

وأخبر سبحانه وتعالى الجميع بأنهم سيعودون إليه مرة أخرى ليسألهم عن العهد والميثاق والمهمة التي أنزلهم إلى الأرض من أجلها ﴿**كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ**﴾ [الأعراف: ٢٩].

ولقد جعل الله عز وجل هذا العهد مركوزًا في داخلهم: فطرة تميل بهم إلى الحق، وإلى عبادته سبحانه وتعالى ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾ [الروم: ٣٠].

معنى ذلك أن الخلق جميعهم يبدأون رحلتهم على الأرض من نقطة واحدة وفطرة مشتركة، قال ﷺ: «**ما من مولود إلا يولد على**

الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه..»[1].

بداية الاختبار:

بدأت ذرية آدم في الخروج إلى الأرض مجموعة بعد مجموعة لأداء الاختبار، وعندما تنتهي الواحدة وتنقضي مدة امتحانها ووجودها على الأرض تنزع أرواحها وتذهب إلى القبور، وهكذا حتى ينتهي الجميع.

فما هو هذا الامتحان وما طبيعته؟!

***

(١) متفق عليه.

الدنيا دار امتحان

اختار الله ﷻ الأرض لتكون مكانًا لاختبار آدم وبنيه ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٧].

ولقد هيأ – سبحانه وتعالى – الأرض لهذه الوظيفة، وتكفل بتوفير أسباب الحياة للإنسان عليها، فأوجد الماء والهواء والطعام والشراب، واللباس والدواء، وغير ذلك مما يعين المرء على البقاء دون مشقة أو عسر.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۞ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ [الذاريات: ٢٢ ، ٢٣].

فالرزق مضمون، وما على العبد إلا أن يبذل الجهد اليسير في سبيل العثور عليه فكما أن الله ﷻ جعل الماء سببًا للإرواء، والنار سببًا للإحراق، فإنه سبحانه جعل السعي في الأرض سببًا للحصول على الرزق ولكن دون لهث وراءه، ولهفة مبعثها الحرص

عليه والخوف من ضياعه.

تسخير الكون:

ومن صور تهيئة الناس لأداء الامتحان، وعدم إشغالهم بشيء آخر يعيق أداءهم للمهمة التي خلقوا من أجلها: تسخير الكون لهم ﴿**اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ۞ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**﴾ [إبراهيم: ٣٢، ٣٣].

فالجبال الشاهقة التي نراها، والبحار العميقة، والشمس، والقمر، والشجر والدواب...كل ذلك مخلوق من أجلنا، ومسخر لنا ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا**﴾ [البقرة: ٢٩].

لم تمتنع الأشجار عن طرح ثمارها للبشر على مر العصور، ولم ترفض الدواب يومًا حملنا إلى المكان الذي نريد...لم تأب الشمس أن تمدنا بالضياء، ولا القمر أن يعرفنا بالأيام.

لا تنشغل بغير الله:

الكون كله مهيأ لخدمتك أيها الإنسان..مصانع موجودة تحت الأرض وفوقها تعمل من أجلك ليل نهار؛ لتقدم لك إنتاجها من شتى ألوان الأطعمة والفواكه ﴿**فَلْيَنظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۞ أَنَّا**

﴿صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۞ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ۞ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۞ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۞ وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً ۞ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۞ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ۞ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤ - ٣٢].

لسان حال الكون يقول لك:

أرح نفسك لا تنشغل بشيء آخر غير المهمة التي خلقت من أجلها.. لا تجهد فكرك بالطعام وكيف يتكون، ولا بالماء وكيف ينزل من السماء، ولا بجسمك وأجهزته المختلفة وكيف تعمل.. ولا برزقك وكيف تحصل عليه.. لا تشغل نفسك بهذا وغيره، فربك خلقنا من أجلك، أنت قائدنا ومهمتنا خدمتك وراحتك...اطمئن من ناحيتنا، ولا تشغل بالك بنا، تفرغ للامتحان، واجعل همك فيما يرضي مولاك تسعد في دنياك وأخراك.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ۞ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۞ إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

جاء في الأثر: «يا ابن آدم خلقت كل شيء لك وخلقتك لنفسي، فلا تشتغل بما خلقته لك عما خلقتك له»[(١)].

(١) أورده الحافظ ابن رجب في شرح حديث «إن أغبط أوليائي» - مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي ص٧٤٩ - الفاروق الحديثة - القاهرة.

طبيعة الامتحان:

إذن فنحن لم نهبط إلى الدنيا ونمضي ما نمضي فيها لنأكل، أو لنشرب، أو لنتزوج وتكون لنا ذرية..بل لأمر عظيم أبت السماوات والأرض والجبال أن تحمله.

إنه اختبار في عبادة الله ﷻ بالغيب في ظل تمتعنا بحرية الاختيار، ومع وجود النفس الراغبة دومًا في نيل الشهوات.

ولقد حدد لنا سبحانه وتعالى شكل العبادة التي يريدها من خلال: منهج وإمكانات.

المنهج:

منهج الامتحان، منهج سهل، تكاليفه قليلة...أوامر ونواهٍ ضمنها سبحانه وتعالى في كتابه وشرحها رسوله ﷺ.

والمتأمل لهذه التكاليف يجد أن مقصدها الأسمى هو الرحمة بالناس: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فمن خلال القيام بها يعيش الفرد في سعادة وسلام في دنياه قبل أخراه.

تأمل معي هذه الآيات لتستشعر معنى الرحمة في شريعتنا السمحة، وأنها ما جاءت إلا لتحقيق المصلحة للناس..مصلحتهم

الحقيقية لا مصلحة أهوائهم وشهواتهم. ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۞ وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١، ١٥٢].

الشريعة والحياة:

من سمات المنهج الإسلامي أنه يتلاءم مع الفطرة، ومع الطبيعة البشرية وما فيها من ضعف، وما لها من احتياجات، فلا تراه يصادر حقًّا من حقوق النفس.

روى البخاري في صحيحه عن أبي جحيفة وهب بن عبد الله ﷺ قال: «آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلة فقال: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعامًا، فقال له: كل فإني صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم فقال له: نم، فنام، ثم

ذهب يقوم فقال له: نم، فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قم الآن، فصليا جميعًا، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقًا، وإن لنفسك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا، فأعط كل ذي حق حقه فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: «**صدق سلمان**».

فالإسلام دين الفطرة أنزله الله عز وجل لينظم شئون العباد، ويكفل لهم السعادة في الدارين.

التكاليف:

إذا ما نظرنا لحجم التكاليف التي يطلبها الإسلام من الفرد يجدها قليلة لا تستغرق منه في يومه إلا وقتًا يسيرًا، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رجلًا سأل النبي ﷺ فقال: أرأيت إذا صليت المكتوبات، وصمت رمضان، وأحللت الحلال وحرمت الحرام، ولم أزد على ذلك شيئًا، أدخل الجنة؟ قال: «**نعم**».[1]

الإمكانات:

ومع المنهج الميسر، يأتي الشق الآخر من الامتحان ألا وهو الإمكانات والأدوات، هذه الإمكانات هي ما يعطيه الله ﷻ للفرد ويمكنه منها في حياته الدنيا فيعطي البعض أشياء مثل الصحة، والمال، والأولاد، والحسب، والفصاحة، والذكاء، ويمنعها عن آخرين.

---

(١) رواه مسلم.

والهدف من العطاء الشكر.. شكر الله وحمده على نعمة العطاء، ودوام ربطها بالمنعم ونسبتها إليه، والشعور بالامتنان نحوه – سبحانه – وكذلك عدم التكبر بهذه النعمة على الآخرين، أو الشعور بالأفضلية عليهم، مع استخدامها في طاعة الله ﷻ.

أما منع هذه الإمكانات فالهدف منه الصبر..فلا اعتراض على قضاء الله، ولا تسخط ولا تشكِّي، بل تحمل وصبر واحتساب.

فالعبد الصالح الذي يحسن الإجابة في مادة العطاء يستقبل النعمة ولسان حاله يقول: ﴿**هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ**﴾ [النمل: ٤٠].

أما الإجابة الخاطئة لمادة العطاء والتي ينبغي أن نحذر منها فتتمثل في مثل هذا الموقف ﴿**ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾ [الزمر: ٤٩].

وفي مقابل العطاء، نجد ما يمثل إجابة المنع الصحيحة قوله تعالى: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۞ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦].

أما الإجابة الخاطئة للمنع والتي لا يحبها الله من عباده فهي مثل قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ**

كَظِيمٌ ۞ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩].

أيهما أفضل: العطاء أم المنع؟

إذا ما تبين لنا ماهية الإمكانات والأدوات التي يعطيها الله لعباده أو يمنعها عنهم، اتضحت الإجابة عن السؤال الذي يشغل بال الكثير وهو: أيهما أفضل..العطاء أم المنع .. الغنى أم الفقر... الذكر أم الأنثى؟!

الأفضل من ينجح في مادته، فالغني الشاكر خير من الفقير غير الصابر، ومن حرم الأولاد فصبر، خير ممن رُزقَهم ولم يشكر الله عليهم.

فالعبرة إذن بالكيفية التي نتعامل بها مع المنع أو العطاء، ويتضح هذا جليًّا في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۞ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ۞ كَلاَّ﴾ [الفجر: ١٥ - ١٧].

فالغنى ليس كرامة، والفقر ليس إهانة، بل الاثنان ابتلاء واختبار.

فأنت وخادمك تجلسان في نفس قاعة الامتحان، ولكل منكما

إمكانات أو أدوات مختلفة عن الآخر يمتحن فيها، فلا أنت أفضل منه بغناك وجاهك ولا هو أقل منك بفقره ووضعه الاجتماعي، فأنتما متماثلان، كلاكما يؤدي الامتحان، أما الأفضل منكما فهو الذي يحسن الإجابة في مادته ﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ**﴾ [الأنعام: ١٦٥].

إذن فكل ما يرد علينا أو يمتنع عنا من نعم ما هو إلا مادة امتحان من الله ﷻ، وليس لنا أن نعترض على شيء، أو نتمنى أن نكون في مكان آخر غير مكاننا ﴿**وَلاَ تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ**﴾ [النساء: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿**وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ**﴾ [طه: ١٣١].

الملك كله لله:

مما يساعدنا على حسن التعامل مع ما معنا من إمكانات: حسن إدراك حقيقة الملك، فكل ما يمتلكه أي إنسان في الدنيا ما هو إلا ملك مؤقت، ولا يوجد ملك حقيقي لأحد من الخلق، فالملك كله لله.. أجسادنا..أموالنا.. أولادنا، وكل عطاء مسترد، وسنخرج من الدنيا كما دخلنا فيها، وما علينا إلا أن نردد: إنا لله وإنا إليه راجعون

﴿لله مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٢٠].

فعلى سبيل المثال: كمية الذهب التي توجد في الأرض ويتداولها الناس فيما بينهم على مر العصور ستبقى في الأرض ليرثها الله ﷻ مع غيرها ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠].

قال محمد بن سيرين: إن رجلين اختصما في تخوم أرض – أي حد أرض – فأوحى الله ﷻ إليها: كلميهما. فقالت: يا مسكينان تختصمان فيّ وقد ملكنى ألف أعور سوى الأصحاء[١].

دور الشيطان:

أما دور الشيطان في قاعة الامتحان فيخبرنا عنه القرآن في مثل قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠].

فهو يعمل على إبعادنا عن الإجابات الصحيحة لنساق معه إلى النار.. يدخل علينا من نفس المداخل الذي دخل منها على أبوينا..

---

(١) سير السلف الصالح لابن الفضل الأصبهاني ٣/ ٩٢٥ – دار الراية – الرياض.

الملك والخلد، فيزين لنا العطاء على أنه ملك حقيقي، ويدفعنا إلى الغرور والانخداع به، واستعظام النفس، والتكبر، واحتقار الآخرين.

يصور المنع على أنه عقوبة من الله ﷻ ليعترض العبد على قضاء الله وقدره، فيتسخط ويتشكى، وينقم على وضعه، ويحسد غيره، بل ويفرح بأي نقص أو بلاء يصيبه.

يبهرج الدنيا ويزينها أمام أعيننا، لنحبها ونتشبث بها، ونتصارع عليها، لنغفل عن المهمة التي خلقنا من أجلها.

ورغم الدور الخطير للشيطان إلا أن الله ﷻ قد بين لعباده السبيل لمقاومته والانتصار عليه وذلك من خلال الاستعاذة به سبحانه وتعالى من شر الشيطان ﴿**وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ [فصلت: ٣٦].

زمن الامتحان:

زمن الامتحان يبدأ من وقت البلوغ والتكليف وينتهي بالموت، وإن كان هذا الزمن يختلف من شخص لآخر إلا أن الجميع يمتحن في نفس المواد والتي تتكرر كل يوم. فما من يوم تشرق فيه الشمس إلا ويمر على الإنسان – أي إنسان – عطاء ومنع، وعليه دائمًا شكر وصبر.

فمن صور العطاء: توارد النعم، وتوالي الإمداد بأسباب ومقومات الحياة.

ومن صور المنع: تواري بعض النعم بصورة مؤقتة أو دائمة كنعم التسخير والإمداد والأمن والستر والتوفيق والهداية والعافية.

ومن رحمة الله بعباده أن أتاح لهم محو أي إجابة خاطئة مهما كان حجمها، واستبدالها بإجابة صحيحة، فباب التوبة مفتوح أمام العبد ما لم يغرغر.

فبالتوبة الصادقة والندم على ارتكاب الأخطاء السابقة تنمحي السيئات ﴿**إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾ [الفرقان: ٧٠].

وعن أنس ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله تعالى: يا بن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا بن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا بن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا، لأتيتك بقرابها مغفرة**»[(١)].

---

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

فالله ﷻ يريد لعباده الخير والنجاح في الامتحان، والعودة إلى الجنة، لذلك فهو يفرح بتوبتهم وعودتهم إليه.

قال ﷺ: «**لله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها، وقد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها، قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح**»[1].

التعاون على البر:

من صور الرحمة والود الإلهي ترغيب العباد في مساعدة بعضهم البعض على الإجابة الصحيحة فيما بين أيديهم من أسئلة، فجعل سبحانه وتعالى مقام الدعوة إلى الله أشرف المقامات ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ [فصلت: ٣٣].

أما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد أوجبه الله على الجميع، كل حسب استطاعته ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ**﴾ [آل عمران: ١١٠].

---

(١) متفق عليه.

كل هذا وغيره ليتمكن الجميع من النجاح في الامتحان والعودة إلى الجنة بسلام.

الرقابة:

أما تسجيل الإجابات والرقابة على الامتحان فتتولاها أكثر من جهة.

فالملائكة تسجل علينا كل أعمالنا ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

وأجسادنا شهيدة علينا:

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

والكون المحيط بنا كذلك:

قال تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٩].

قال عطاء: «ما من عبد يسجد في بقعة من بقاع الأرض إلا شهدت له يوم القيامة وبكت عليه يوم يموت»[(١)].

(١) الجامع لأحكام القرآن القرطبي ١٦ / ٩٤ – دار الكتب العلمية – بيروت.

أما الرقابة العظمى فمن الله ﷻ، فهو الرقيب، الشهيد، السميع، البصير، القريب ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

فالأمر إذن خطير .. رقابة شديدة، وتسجيل وإحصاء لكل شيء.

قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩].

نهاية الامتحان:

في الوقت الذي حدده الله ﷻ لنهاية امتحان كل عبد من عباده، يأتي ملك الموت ومن ورائه ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب.. يأتي ملك الموت لنزع الروح وإنهاء الوجود في قاعة الامتحان.. في هذه اللحظات يرى العبد الملائكة لأول مرة في حياته..يرفع الستار بين عالم الغيب وعالم الشهادة وتنكشف الحقيقة ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

البشارة:

في هذه اللحظات يبشر المؤمن بنجاحه في الامتحان ﴿إِنَّ

﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ۞ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۞ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠، ٣٢].

أما الظالم لنفسه المضيع للمهمة التي خلق من أجلها فيبشر بالعذاب ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلاَئِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾

[الأنعام: ٩٣].

في هذه اللحظات يشتد ندم الغافلين على ما فرطوا في جنب الله، ويطلبون العودة إلى الدنيا ليصلحوا ما أفسدوه ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۞ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾

[المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

كلا.. لا عودة للدنيا، فقد انتهت المهلة وأغلقت الصحيفة لتبدأ مرحلة جديدة.. مرحلة الحياة البرزخية.

* * *

الحياة البرزخية

أخبرنا الله ﷻ في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ بأن هناك مرحلة من مراحل رحلة العودة إليه تكون بعد الموت، وقبل الحساب..هذه المرحلة هي الحياة البرزخية والتي تعد بمثابة ساحات انتظار ينتظر فيها الناس بعد مماتهم بقية إخوانهم من بني آدم عليه السلام .

تبدأ هذه المرحلة بوفاة الإنسان ونزع الروح من جسده ودفنه في التراب، لتحدث بعد ذلك أحداث كثيرة لا يمكن لأحد من الأحياء أن يراها أو يدركها فهناك خط فاصل ضخم يفصل الحياة فوق الأرض عن تحتها، ولم يحدث على مر العصور أن مات شخص ثم عاد للحياة الدنيا ليخبر الناس بما حدث له تحت التراب.

هذه المرحلة قد وصل إليها جميع من سبقنا، ولم يتخلف عنها أحد، قال تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ۞ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**﴾ [الأنبياء: ٣٤، ٣٥].

فلا مفر للإنسان – أي إنسان – وُجد على ظهر هذه الأرض من الذهاب إلى القبر شاء أم أبى ﴿**قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاَقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [الجمعة: ٨].

طبيعة الحياة البرزخية

إن الآيات والأحاديث التي تحدثت عن وضع الإنسان في قبره، وإن كانت قليلة، إلا إنها ترسم خطوطًا عامة لما يحدث فيه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا قُبر الميت أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر وللآخر النكير فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: ما كان يقول، هو عبد الله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعًا في سبعين، ثم ينوَّر له فيه، ثم يُقال له: نم، فيقول: أرجع إلى أهلي فأخبرهم، فيقولون له: نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك، وإن كان منافقًا قال: سمعت الناس يقولون قولًا فقلت مثله، لا أدري، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول ذلك، فيقال للأرض: التئمي عليه، فتلتئم عليه فتختلف أضلاعه، فلا يزال فيها مُعذبًا حتى يبعثه الله عز وجل من**

مضجعه ذلك»[1].

قبر المؤمن:

في حديث البراء بن عازب يقول رسول الله ﷺ عن وصف المؤمن في قبره بعد سؤال الملكين له:«.... **فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له بابًا إلى الجنة، فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره، ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح فيقول له: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت فوجهك الوجه يجيء بالخير؟ فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة، رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي...»**.

قبر الكافر:

ويصف الرسول ﷺ قبر الكافر بعد أن يفشل في الإجابة عن أسئلة الملكين «... **فينادي مناد من السماء: أن كذب عبدي فأفرشوه من النار، وافتحوا له بابًا إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك فهذا يومك**

---

(١) حسن. رواه الترمذي وأورده الألباني في صحيح الجامع ح (٧٢٤).

الذي كنت توعد، فيقول: من أنت فوجهك الوجه يجيء بالشر؟ فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: رب لا تقم الساعة»[1].

إنها حياة من نوع آخر تلك التي يكون فيها الناس في قبورهم، إما سعادة وبهجة ونعيم، أو ضيق ووحشة وندم وحسرة ﴿**النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ**﴾ [غافر: ٤٦].

ويقول ﷺ: «**إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده غدوة وعشية، إن كان من أهل الجنة فمن الجنة، وإن كان من أهل النار فمن النار، ويقال: هذا مقعدك حتى تُبعث إلى يوم القيامة**»[2].

الحكم على الشيء فرع عن تصوره:

... نعم، نحن لا نستطيع أن نتخيل بصورة تفصيلية ما يحدث للميت في قبره، لأن مفردات هذه المرحلة قد لا يكون لها مدلول في أذهاننا لاختلافات كثيرة بين الحياتين: الدنيوية والبرزخية.

يقول د. مالك بدري: إن من يتفكر في حياة الإنسان وهو مازال جنينًا في الأرحام، ثم يقارن حياته في تلك الظلمات بحياته

---

(١) صحيح، رواه الإمام أحمد وأبو داود، وابن ماجه، وابن خزيمة والحاكم عن البراء، وأورده الألباني في ص. ج. ص (١٦٧٦).
(٢) متفق عليه.

بعد الولادة والبلوغ يستطيع أن يتصور الحياة البرزخية بالنسبة للحياة الدنيا.

فلو قُدر لنا أن نتحدث إلى جنين في رحم أمه عن سعة الحياة الدنيا، وشمسها، وقمرها، وأنهارها، وأشجارها، وثمارها، ما استطاع أن يتخيلها، لأن خبراته لا تعدو دنياه المظلمة، وهو لا يحتاج إلى الأكل والشرب والتنفس، فطعامه وشرابه وهواؤه يأتيه مذابًا سائغًا عن طريق المشيمة، فهي أهم الأعضاء بالنسبة لحياته، فإذا تمت الولادة وخرج إلى دنيانا فإن هذه المشيمة تكون قد أدت غرضها، فيقطع الحبل السري ويلقى بها حيث يلقى ولا يهتم بها أحد.

أما في حياتنا الدنيا – وما هي إلا رحم كبير – فيقوم الجسد نفسه مقام المشيمة في الرحم، ويستمع الإنسان في دنياه هذه إلى وحي وهدي نبيه ﷺ عن سعة الآخرة ونعيمها وأهوالها، فما هو إلا طفل يعيش في رحم الدنيا، فإذا جاء الأجل، والتفت الساق بالساق وقبضت الروح، انتقل إلى حياة برزخية أوسع، تكون حاجته فيها لجسمه كحاجة المولود لمشيمته، فيوضع ذلك الجسم الذي فارقته الحياة في قبره[1].

(١) التفكر من المشاهدة للشهود، د. مالك بدري – المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

الدنيا سجن المؤمن:

يقول أبو حامد الغزالي: واعلم أن المؤمن يكشف له عقيب الموت من سعة جلال الله ما تكون الدنيا بالإضافة إليه كالسجن الضيق، ويكون مثاله كالمحبوس في بيت مظلم فتح له باب إلى بستان واسع الأكناف لا يبلغ طرفه أقصاه، فيه أنواع الأشجار والأزهار والثمار والطيور فلا يشتهي العودة إلى السجن المظلم.. وكذلك المؤمن يجزع من الموت، فإذا أفضى إلى ربه لم يحب أن يرجع إلى الدنيا كما لا يحب الجنين أن يرجع إلى بطن أمه[1].

إنها حياة أخرى فيها ما لا يمكن تصوره من صور العذاب وصور النعيم، يحدد الواحد منا بنفسه ما يجده فيها ﴿**وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ**﴾ [الروم: ٤٤]. قال مجاهد: فلأنفسهم يمهدون: في القبر[2].

عملك يصحبك

من هنا يتضح لنا أن أعمالنا هي التي تحدد مصيرنا في قبورنا وآخرتنا، فلندعي من الصلاح ما ندعي، فسيرى كل منا بنفسه ثمرة جهده في الدنيا، فإن كان هذا الجهد في طاعة الله ومرضاته

(١) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي ٥/ ١١٥ – دار الحديث – القاهرة.
(٢) إثبات عذاب القبر للإمام البيهقي ص ٩٥ – دار الفرقان، الأردن.

فهنيئًا لصاحبه بنوم أجمل من نوم العروس، وراحة وطمأنينة وبرد وسلام وتشوق إلى قيام الساعة.

أما إن كان هذا الجهد في غير مرضاة الله بل كان من أجل جمع المال، وبناء الدور، واتباع الشهوات وانتهاك حرمات الله، فلن يرى صاحبه ما يسره في قبره. قال تعالى: ﴿**وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى**﴾ [النجم: ٣٩].

... وتستمر هذه المرحلة حتى قيام الساعة وبعدها تكون نهاية الرحلة والحساب وحط الرحال إما في الجنة وإما في النار.

***

يوم الحساب

بعد أن ينتهي آخر عدد من البشر من أداء امتحاناتهم، ينفخ إسرافيل – عليه السلام – في الصور لتبدأ بعد ذلك مرحلة جديدة.. مرحلة الحساب وإعلان النتائج وتوزيع الشهادات.

تحطم الأرض

بعد النفخة الأولى ونهاية اختبار البشر تكون الأرض قد أدت وظيفتها كقاعة امتحان.. عندئذ يحدث لها زلزال شديد، وتندك، وتتحطم، وتنسف جبالها، وتكور شمسها، وتطوى سماؤها ﴿**فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۞ وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۞ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۞ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ**﴾ [الحاقة: ١٣ - ١٦].

النفخة الثانية:

ينفخ في الصور النفخة الثانية، ويُبعث الناس جميعًا، ويخرجون من قبورهم إلى أرض المحشر للعرض على الله.

قال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

موقف رهيب، ويوم عصيب، لم يشهد أحد مثله قط ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۞ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١، ٢].

يوم الندم

في هذا الموقف يتذكر الإنسان ما فعله في الدنيا، ويشتد ندمه على تضييعه الفرصة من بين يديه ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ۞ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٣، ٢٤].

من مشاهد الندم:

تتعدد صور ومشاهد الندم في هذا اليوم، ومن ذلك مشهد ندم الظالمين ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ۞ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً ۞ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

من مشاهد الندم:

مشهد ندم المجرمين الذين كانوا يعذبون الناس، ويفتنونهم عن دينهم ويجاهرون بارتكاب الكبائر والآثام. ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ

﴿الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

ومن صور الندم أيضًا:

ندم أولئك الذين تكالبوا على الدنيا، وانخدعوا بزينتها، وحرصوا على تحصيل أكبر قدر منها، وإن آل ذلك إلى ظلم غيرهم، وأخذ حقوقهم. ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

أين أهلي وأولادي؟

أما من ظل طيلة حياته يفكر في أولاده، وتأمين مستقبلهم الدنيوي، تاركًا نفسه ومستقبله الحقيقي مع الله عز وجل، فلسان حاله يقول في هذا اليوم: أين من أفنيت حياتي من أجلهم؟! أين من فرطت في جنب الله لحرصي على تلبية طلباتهم؟!.

أين هم الآن؟! لماذا لا أجدهم بجواري؟!

فيأتي الجواب ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

الكل يقول: نفسي نفسي.. لا أفكر اليوم إلا في نفسي.. ﴿**يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۞ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۞ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۞ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ**﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧].

العرض على الله:

يبدأ الحساب والكل غارق في التفكير، ولا يدري ماذا سيحدث معه.. ينادي على الأسماء للعرض على الله عز وجل.

لحظات رهيبة.. تلك التي يُنادى فيها على اسمك، فتأتي الملائكة لإحضارك، قال ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا وسيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان**»(١).

في هذا الموقف الرهيب.. موقف مثول الواحد منا أمام الله عز وجل، يبدأ الحساب الفردي عن المهمة التي كُلف بأدائها على ظهر الأرض، وعن العهد الذي قطعه على نفسه.

ماذا كنتم تعملون؟

سؤال سيُطرح في هذا الموقف، كما قال تعالى: ﴿**وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ۞ حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [النمل: ٨٣، ٨٤].

---

(١) متفق عليه.

ماذا فعلتم بأوقاتكم؟ وماذا فعلتم بالمال الذي استُخلفتم فيه، وبالعلم الذي تعلمتموه؟

قال ﷺ: «**لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه، وعن علمه ما فعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه**»[1].

يُنصب الميزان، الحسنات في كفة والسيئات في الكفة الأخرى، ويُفاجأ العبد بأشياء لم تكن في حُسبانه، وسيئات لم يكن يتذكرها وحقوق تهاون في أدائها. ﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ**﴾ [الأنبياء: ٤٧].

رد المظالم:

وعند الحساب ترد المظالم بين العباد.

قال ﷺ: «**أتدرون من المفلس؟** قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: **إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من**

---

(١) صحيح. رواه الترمذي عن أبي برزة، وأورده الألباني في صحيح الجامع ح (٧٣٠٠).

حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم فطُرحت عليه، ثم طرح في النار»[1].

توزيع الشهادات:

وبعد الحساب تُعلن النتائج وتُوزَّع الشهادات، فتتطاير الصحف ليستلم الناجحون صحائفهم بأيمانهم، والراسبون بشمائلهم.. وتتباين ردود الأفعال ما بين سعيد وحزين. ﴿**فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۞ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۞ وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۞ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۞ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ۞ وَيَصْلَى سَعِيرًا**﴾ [الانشقاق: ٧ – ١٢].

* * *

(١) أخرجه مسلم والترمذي وابن ماجه وابن حبان وأحمد عن أبي هريرة.

نهاية الرحلة

بعد الإعلان عن النتائج وتوزيع الشهادات يذهب الناجحون إلى الجنة.. دارهم الأولى ﴿**وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ**﴾ [الزمر: ٧٣].

وفيها يجد كل ناجح مكانًا مخصصًا له، وحاشية في استقباله، وخدمًا ينتظرونه، وألوانًا من النعيم ما لا يستطيع العقل البشري أن يتصوره أو يدرك حقيقته.

ففي الحديث القدسي: قال الله تعالى: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر..**»(١).

يكفي أن تعرف ماذا أعد الله عز وجل لأدنى أهل الجنة منزلة لتدرك أنه نعيم لا يمكن تخيله.

---

(١) متفق عليه.

عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**سأل موسى ربه، ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجئ بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة. فيقول: أي رب كيف وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل مُلك مَلكٍ من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب، فيقول: لك ذلك ومثله ومثله، فيقول في الخامسة: رضيت، فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك، ولذت عينك، فيقول رضيت رب...**»[(١)].

عملك يبني قصرك:

وفي الجنة يُدرك العبد المؤمن أن قصوره قد أقامتها الملائكة، وشيدتها، وغرست أشجارها بناء على ما قدمه من أعماله الصالحة.. فالجنة كما وصفها الخليل إبراهيم – عليه السلام – لنبينا ﷺ: طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان وأن غراسها: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر[(٢)].

فدور الجنة تُبنى بالذكر، وبالأعمال الصالحة من صلاة وقيام

---

(١) رواه مسلم.

(٢) حسن، رواه الترمذي، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة ح (١٠٦)

وجهاد وإنفاق في سبيل الله...، فالكيس من أحسن بناء داره، وقدم لنفسه ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠].

عن عائشة رضي الله عنها: أنهم ذبحوا شاة، فقال النبي ﷺ: «**ما بقي منها؟**» قالت: ما بقى منها إلا كتفها، قال: «**بقي كلها غير كتفها**»(١).

.. وفي الجنة يجتمع شمل الأسرة الصالحة ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

فيها يرى المؤمنون ربهم:

قال ﷺ: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى: هل تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتجنبنا النار؟ فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم**»(٢).

---

(١) رواه الترمذي وقال: حديث صحيح.
(٢) رواه مسلم.

السجن:

أما الراسبون فيساقون إلى النار والعياذ بالله، وفيها من ألوان العذاب ما فيها ﴿**إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۞ طَعَامُ الأثِيمِ ۞ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۞ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ۞ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۞ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ۞ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ**﴾ [الدخان: ٤٣ - ٤٩].

الصراخ يملؤها وكذلك الندم، والعويل، وإلقاء اللوم على الآخرين.

قال تعالى: ﴿**هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لاَ مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ ۞ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لاَ مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ۞ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ**﴾ [ص: ٥٩ - ٦١]

عذاب لا يُحتمل... الكل يتمنى الموت فهل من مجيب؟!

﴿**وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ۞ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ**﴾ [الزخرف: ٧٧، ٧٨].

تواضع أمنياتهم لتصبح يومًا واحدًا بلا عذاب:

﴿**وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ۞ قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا**

﴿فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ﴾ [غافر: ٤٩، ٥٠].

أما الحسرة التي ليس بعدها حسرة فتتمثل في رؤيتهم لأهل الجنة وتنعمهم فيها.. يرونهم يأكلون ويشربون ويمرحون ويضحكون، وهم جوعى وعطشى.. فماذا يقولون لهم؟

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالُوا إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ۞ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾

[الأعراف: ٥٠، ٥١].

* * *

الفصل الثاني
ماذا نفعل؟

- فلنبدأ الآن بالتوبة
- الوسائل المعينة لُحسن التعامل مع الدنيا

أولاً : المداومة على قراءة القرآن

ثانيًا : رحلات الحقيقة

ثالثًا : الإنفاق في سبيل الله

رابعًا : الاقتصاد في المعيشة

خامسًا : ثوابت في حياتنا

سادسًا : الدعوة إلى الله

سابعًا : الصحبة الصالحة

ماذا نفعل؟

بعد أن استعرضنا معًا بعض ملامح رحلة العودة إلى الله، يبقى السؤال: ماذا ينبغي علينا أن نقوم به قبل أن تضيع منا الفرصة، ويُحال بيننا وبين العمل الصالح؟

ماذا نفعل كي لا نكون ممن يقول: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤].

فلنبدأ من الآن:

لنبدأ الآن بالإجابة عن هذا السؤال، وقبل أن نترك هذه الصفحات.

لنبدأ باستشعار مشاعرنا في تلك اللحظات التي نعيشها الآن بالعزم الصادق على فتح صفحة جديدة مع الله عز وجل: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠].

ولنعلم جميعًا بأنه على قدر الندم على ما فات، والعزم على الاستقامة فيما هو آت، يكون الخير والمدد والعون من رب الأرض والسموات: ﴿إِن يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾ [الأنفال: ٧٠].

قال أبو الدرداء: لما أهبط الله آدم إلى الأرض قال له: يا آدم أحبني وحببني إلى خلقي، ولا تستطيع ذلك إلا بي، ولكن إذا رأيتك حريصًا على ذلك أعنتك عليه[1].

حان وقت التوبة:

علينا كذلك الآن أن نحسن ترجمة الشعور بالتقصير الذي يتملكنا في هذه اللحظات بأن نستغفر الله ونتوب إليه من كل أخطائنا وزلاتنا، ونسأله التوفيق والإعانة على حسن التعامل مع امتحان الدنيا، ولنردد قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [الأعراف: ٢٣]، ولنبشر بالفرج، فربنا سبحانه وتعالى رحيم، ودود، يريد لنا الخير، وينتظر منا هذه البداية ليتوب علينا.

عن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله تعالى: يابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تُشرك بي شيئًا، لأتيتك بقرابها مغفرة**»[2].

---

(١) استنشاق نسم الأنس لابن رجب الحنبلي، ص ١٢٧، مكتبة الخاني الرياض.
(٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

ومع العزم الصادق والتوبة النصوح هناك بعض الوسائل من شأنها – إذا ما داومنا عليها – أن تذكّرنا بحقيقة الوجود، ورحلة العودة إلى الله، وتضع الدنيا في حجمها الصحيح، وتجعلنا بعون الله عز وجل من طلاب الآخرة.

وهي على سبيل الإجمال:

١- المداومة على قراءة القرآن.

٢- رحلات الحقيقة.

٣- الإنفاق في سبيل الله.

٤- الاقتصاد في المعيشة.

٥- ثوابت في حياتنا.

٦- الدعوة إلى الله.

٧- الصحبة الصالحة.

من وسائل حسن التعامل مع الدنيا

الوسيلة الأولى
المداومة على قراءة القرآن

القرآن الكريم هو أفضل وسيلة تكفل لنا دوام تذكرنا لحقائق الوجود، ورحلة العودة إلى الله، فهو دائم الحديث عن بداية الخلق، وطبيعة الامتحان، وحقيقة الدنيا، وكيفية الإجابة بشكل صحيح عن كل ما يرد علينا في حياتنا العملية من صور المنع والعطاء، مع ضرب الأمثال وعرض النماذج والقصص التي تقص علينا أحوال الصالحين الذين أطاعوا ربهم، واستقاموا على منهجه لنحاكيهم، ونقتدي بهم، وفي المقابل فإنه يعرض كذلك العديد من نماذج المعرضين الذين اتبعوا الشيطان وركنوا إلى الدنيا، وغفلوا عن المهمة التي خلقوا من أجلها.

والمتأمل للقرآن يجد أنه لا تكاد تخلو سورة من سوره من التذكرة بهذه الأمور أو بعضها، ليجدها القارئ أمامه عند أي موضع يقرؤه فيه: ﴿**وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا**﴾ [طه: ١١٣].

القرآن والتغيير:

ومع أهمية دور القرآن كمُذكِّر لحقيقة الوجود وما ينبغي علينا أن نفعله إلا أن هذه التذكرة وحدها لا تكفي لجعل المرء يستقيم على أمر الله، بل لابد أن يصاحب ذلك تجاوب قلبي وانفعال وجداني يدفع صاحبه للقيام بمقتضى هذه التذكرة من أعمال صالحة.. وهنا يأتي الدور المتفرد للقرآن، والذي يتمثل في قدرته على التأثير في مشاعر قارئه واستثارتها بمواعظه البليغة، وقوة سلطان ألفاظه على النفس، وتصويره العجيب والمثير لمشاهد يوم القيامة، مما يزيد الإيمان ويولد الطاقة الدافعة للقيام بأعمال البر المختلفة بسهولة ويسر. ﴿**إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً وَيَخِرُّونَ لِلأذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا**﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

تأثير القرآن:

للقرآن تأثير قوي يفوق كل ما يمكن تخيله من وسائل التأثير المختلفة، ولقد ضرب لنا سبحانه وتعالى مثلاً لذلك، ودعانا للتفكر فيه لعلنا ندرك قيمة هذا الكتاب وسر معجزته، فننشغل به ، ونترك له أنفسنا.

يقول تعالى: ﴿**لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا**

﴿مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

كيف ننتفع بالقرآن ؟

إن كان للقرآن هذه القدرة الفذة على التذكير والتأثير، ومن ثم التغيير الإيجابي في سلوك الإنسان، فكيف لنا أن ننتفع به وندخل إلى دائرة تأثيره، ومصنع تغييره؟

مما لا شك فيه أن من يقبل على القرآن مستشعرًا أنه خطاب من الله عز وجل موجه إليه، يحمل في طياته مفاتيح سعادته في الدنيا والآخرة، وأنه القادر بإذن الله على تغييره والتأثير فيه مهما كان حاله، لاشك أن هذا الشخص لا يحتاج إلى من يدله على الوسائل التي تعينه على الانتفاع بالقرآن، لأنه بهذا الشعور قد أصبح مهيأ للدخول إلى دائرة تأثيره.

أما وإنه من الصعب علينا في البداية أن نكون كذلك بسبب ما ورثناه من أشكال التعامل الخاطئ مع القرآن مثل الاهتمام بألفاظه دون معانيه، مما أقام حاجزًا نفسيًّا بيننا وبينه يمنعنا من الانتفاع الحقيقي به.

أما والأمر كذلك فإن عودتنا إلى القرآن تحتاج إلى وسائل

سهلة وعملية ومحددة تعين صاحبها على إدارة وجهه للقرآن، والإقبال على مأدبته، والدخول إلى عالمه بصورة متدرجة.

ومن أهم الوسائل التي تحقق هذا الغرض هي:

١- الانشغال بالقرآن.

٢- تهيئة الجو المناسب.

٣- القراءة المتأنية.

٤- التركيز عند القراءة.

٥- التجاوب مع الآيات.

٦- أن نجعل المعنى هو المقصود.

٧- ترديد الآية التي تؤثر في القلب.

٨- تعلم الآيات والعمل بها.

أولاً: الانشغال بالقرآن:

بمعنى أن يصبح القرآن هو شغلنا الشاغل، ومحور اهتماماتنا، وأولى أولوياتنا، ولكي يكون القرآن كذلك لابد من المداومة اليومية على تلاوته مهما تكن الظروف، وأن نعمل على تفريغ أكبر وقت له، فالتغيير القرآني تغيير بطيء، هادئ، متدرج، ولكي يؤتي ثماره لابد من استمرارية التعامل معه، وألا نسمح بمرور يوم دون أن يكون هناك لقاء به.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الشيطان دومًا يريد الإيقاع بنا وإضلالنا، وكذلك فإن أنفسنا لا تكف عن طلباتها التي تخدم حظوظها، والحياة في كل يوم تحمل جديدًا، وليس من عادتها أن تظل صافية لإنسان أبد الدهر.. وهنا تبرز أهمية المداومة على القراءة اليومية للقرآن ليؤهلنا لحسن التعامل مع متغيرات الحياة، ومواجهة الشيطان، ومجاهدة النفس.

ولنعلم جميعًا أنه على قدر ما سنعطي القرآن سيعطينا، فمن استطاع أن يجعل له في يومه عدة لقاءات معه فقد حاز قصب السبق.

ثانيًا: تهيئة الجو المناسب:

لكي يقوم القرآن بعمله في التغيير لابد من تهيئة الظروف المناسبة لاستقباله، ومن ذلك وجود مكان هادئ بعيد عن الضوضاء يتم فيه لقاؤنا به، فالمكان الهادئ يعين على التركيز وحسن الفهم وسرعة التجاوب مع القراءة، ويسمح لنا كذلك بالتعبير عن مشاعرنا إذا ما استثيرت بالبكاء والدعاء.

ومع وجود المكان الهادئ علينا أن يكون لقاؤنا بالقرآن في وقت النشاط والتركيز لا في وقت التعب والرغبة في النوم، ولا ننسى الوضوء والسواك.

ثالثًا: القراءة المتأنية:

علينا ونحن نقرأ القرآن أن تكون قراءتنا متأنية، هادئة، مترسلة، وهذا يستدعي منا سلامة النطق وحُسن الترتيل، كما قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل: ٤].

وعلى الواحد منا ألا يكون همه عند القراءة نهاية السورة، ولا ينبغي أن تدفعنا الرغبة في ختم القرآن إلى سرعة القراءة.

قال على رضي الله عنه: لا خير في قراءة ليس فيها تدبر.

وقال الحسن: يا بن آدم كيف يرق قلبك وإنما همتك في آخر سورتك؟[(١)].

رابعًا: التركيز عند القراءة:

عندما نشرع في قراءة كتاب أو مجلة أو جريدة فإننا نعقل ما نقرؤه، وإذا ما سرحنا في موضع من المواضع عُدنا بأعيينا إلى الوراء، وأعدنا قراءة ما فات على عقولنا، وما دفعنا إلى ذلك إلا لنفهم المراد من الكلام.

وهذا ما نريده مع القرآن: أن نقرأه بحضور ذهن، فإذا ما

---

(١) مختصر قيام الليل لمحمد بن نصر، ص ١٥٠، مؤسسة الرسالة – بيروت.

سرحنا في وقت من الأوقات علينا أن نعيد الآيات التي شردت الأذهان معها.

.. نعم في البداية سنجد صعوبة في تطبيق هذه الوسيلة بسبب تعودنا على التعامل مع القرآن كألفاظ مجردة من معانيها، ولكن بالمداومة والمثابرة سنعتاد بمشيئة الله على القراءة بتركيز وبدون سرحان.

الفهم الإجمالي للآيات:

البعض منا عندما يشرع في تدبر، القرآن تجده يقف متمعنًا عند كل لفظ فيه، مما يجعل التدبر عملية شاقة عليه، وما يلبث إلا أن يمل فيعود أدراجه إلى الطريقة القديمة في القراءة دون فهم ولا تدبر.

فكيف لنا إذن أن نقرأ القرآن بتدبر وسلاسة في نفس الوقت؟!

الطريقة السهلة لتحقيق هذين الأمرين معًا هو أن نأخذ المعنى الإجمالي للآية، وعندما نجد بعض الألفاظ التي لا نعرف معناها فعلينا أن نتعرف على المعنى من السياق، وهذا ما أرشدنا إليه رسول الله ﷺ حين قال: «**إن القرآن لم ينزل يُكذب بعضه بعضًا، بل يصدق بعضه بعضًا، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم**

فردوه إلى عالمه»[1].

وقال الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿**يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ**﴾ [البقرة:١٢١] يعملون بحكمه ويؤمنون بمتشابهه ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه[2].

وليس معنى هذا عدم النظر في كتب التفسير ومعاني الكلمات، فمما لاشك فيه أن للتفسير دورًا كبيرًا في حسن الفهم، وله أيضًا دور أساسي في معرفة الأحكام الشرعية، والتي لا ينبغي علينا أن نستنبطها بمفردنا من القرآن، فتاريخ الأمة الإسلامية يشهد بانحراف الكثيرين ممن استنبطوا بمفردهم الأحكام الشرعية من القرآن دون أن يكونوا مؤهلين لذلك مثل الخوارج وغيرهم.

ومع هذا الدور العظيم للتفسير إلا أنه ينبغي أن يكون له وقته الخاص به، وغير المرتبط بوقت القراءة، فنحن لا نريد أن نخرج من لقائنا بالقرآن بزيادة الفهم فقط، ولكن نريد التأثر وتحرك القلب كذلك، وهذا يحتاج إلى اللقاء المباشر مع القرآن، والسماح بقوة تأثيره أن تنساب داخلنا وتتصاعد من خلال الاستمرار في القراءة، والاسترسال مع الآيات والتجاوب معها.

---

(١) حسن، رواه الإمام أحمد في مسنده وابن ماجة في سننه.
(٢) فضائل القرآن للرازي ص ١٢٦.

خامسًا: التجاوب مع الآيات:

القرآن خطاب مباشر من الله عز وجل لجميع البشر: لي، ولك، ولغيرنا.. هذا الخطاب يشمل ضمن ما يشمل: أسئلة وأجوبة، ووعدًا ووعيدًا، وأوامر ونواهي.

فعلينا أن نتجاوب مع الخطاب القرآني بالرد على أسئلته، وتنفيذ أوامره بالتسبيح أو الحمد أو الاستعاذة من النار، وسؤال الجنة، ولقد كان هذا من هدي رسول الله ﷺ، وصحابته الكرام.. ولعل القيام بهذه الوسيلة يساعدنا على زيادة التركيز عند القراءة، وعدم السرحان.

سادسًا: ترديد الآية التي تؤثر في القلب:

وهذه من أهم الوسائل المعينة على سرعة الانتفاع بالقرآن.

قال تعالى: ﴿**وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا**﴾ [الأنفال: ٢].

فالقرآن من أهم وسائل زيادة الإيمان وذلك من خلال مواعظه البليغة التي تستثير المشاعر وتؤججها، فيحدث بذلك التجاوب بين الفكر والعاطفة.

.. نعم قد تكون لحظات التجاوب والانفعال قليلة في البداية، ولكن بالاستمرار على قراءة القرآن من خلال استصحاب الوسائل

السابقة وغيرها ستأتي – بعون الله – تلك اللحظات، فإذا ما جاءت علينا أن نُحسن التعامل معها، ونعمل على دخول أكبر قدر من نور الإيمان إلى القلب في هذه اللحظات، وذلك من خلال ترديد الآية أو الآيات التي أثرت فينا، وعلينا ألا نمل من ذلك طالما وُجد التجاوب، وهذا ما كان يفعله الصحابة والسلف رضوان الله عليهم.

عن عباد بن حمزة قال: دخلت على أسماء رضي الله عنها وهي تقرأ: ﴿**فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ**﴾ [الطور: ٢٧]، فوقفت عندها فجعلت تعيدها وتدعو، فطال ذلك فذهبت إلى السوق، فقضيت حاجتي ثم رجعت وهي تعيدها وتدعو[(١)].

وبترديد الآية التي تؤثر في القلب تتولد داخل العبد طاقة، عليه أن يُحسن تصريفها بالبكاء والدعاء والمبادرة إلى فعل الخير.

تعلم الآيات والعمل بها:

لكي يقوم القرآن بدوره الأساسي معنا في التذكرة والتوجيه، والاستقامة على الصراط المستقيم، والقرب الدائم من الله عز وجل، لابد لنا من أن نسلم قيادتنا له، وأن نحسن الاستماع إلى

---

(١) مختصر قيام الليل لمحمد بن نصر ص ١٤٩.

توجيهاته، والعمل به قدر المستطاع.

والوسائل السابقة من شأنها أن تدخلنا إلى دائرة تأثير القرآن – بفضل الله – وتُهيئنا لحسن استقبال التوجيهات القرآنية، والعمل بمقتضاها، ولكن القارئ لن يستطيع من خلالها أن يتوقف عند كل آية يقرؤها ليعرف من خلالها المطلوب عمله منها، وإلا ما تجاوزت قراءته بضع آيات في اليوم الواحد.

.. نعم يكفيه التغيير الذي تحدثه الآيات التي يتلوها في تصوراته، والإيمان الذي يزيد في قلبه، والطاقة التي تتولد داخله وتدفعه للقيام بأعمال البر المختلفة.

ومع هذا كله تبقى هناك وسيلة أخرى علينا أن نستخدمها ليُحسن انتفاعنا بالقرآن، ألا وهي تعلُّم الآيات والعمل بها، وحفظها – إن أمكن- وذلك بالتوازي مع الوسائل السابقة.

فكما أننا نخصص وقتًا يوميًا لتلاوة القرآن، علينا كذلك أن نخصص وقتًا آخر بين الحين والحين، نتعلم فيه بضع آيات من القرآن، ثم نجتهد في حفظها والعمل بما دلت عليه من خلق وسلوك، أو ما اشتملت عليه من أوامر ونواه، ولا ننتقل إلى آيات أخرى إلا بعد التأكد من ممارسة العمل بما في تلك الآيات، وهذا ما

كان يفعله الصحابة رضوان الله عليهم.

يقول عبد لله بن مسعود – رضي الله عنه –: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن»[(١)].

ولحرص الصحابة على العمل بما كانوا يحفظونه ويتعلمونه من آيات كان الواحد منهم يمكث فترة طويلة في حفظ السورة، فلقد ظل عمر بن الخطاب يتعلم ويحفظ في سورة البقرة اثنتي عشرة سنة فلما أتمها نحر جزورًا، أما ابنه عبد الله فقد أتمها في ثماني سنين[(٢)].

***

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير – المقدمة – ١/ ٤ مكتبة العبيكان – الرياض.
(٢) تدبر القرآن للسنيدي – ص ٩٩ – المنتدى الإسلامي – الرياض.

الوسيلة الثانية
رحــــلات الحقيقة

والمقصد منها القيام بزيارة أماكن تذكرنا بحقيقة الدنيا، فمهما سمعنا أو قرأنا عن حقيقتها إلا أن للرؤية دورًا أكبر في التأثير على النفس، فكما في الحديث: «**ليس الخبر كالمعاينة**»[1].

ومن هذه الرحلات:

١ - زيارة المقابر:

بين القبور نرى الحقيقة بعينها، وأن الدنيا ليست بدار مقام، وأن الموت هو القدر المحتوم على كل إنسان.

يقول ﷺ: «**زر القبور تذكر بها الآخرة، واغسل الموتى فإن معالجة جسد خاو موعظة بليغة، وصل على الجنائز لعل ذلك يحزنك، فإن الحزين في ظل الله يوم القيامة**»[2].

فعلينا بالذهاب إلى القبور كل فترة والوقوف بينها ولنتخيل

---

(١) صحيح الجامع الصغير (٥٣٧٣).
(٢) رواه الحاكم في المستدرك وصححه ووافقه الذهبي.

أماني ساكنيها في العودة إلى الدنيا وإدراك ما يمكن إدراكه من أعمال صالحة، يقول ﷺ: «**ركعتان خفيفتان مما تحقرون أو تنفلون، يزيدها هذا** – يشير إلى قبر – **في عمله أحب إليه من بقية دنياكم**»[1].

ذهب مالك بن دينار إلى المقابر يومًا فقال:

أتيت القبور فناديتها ... أين المعظم والمحتقر؟
وأين الملبي إذا ما دعا ... وأين العزيز إذا ما افتخر؟
وأين المدل بسلطانه ... وأين القوى إذا ما قدر؟

فسمع صوتًا يقول له:

تفانوا جميعًا فما مخبر ... وماتوا جميعًا ومات الخبر
تروح وتغدو بنات الثرى ... فتمحوا محاسن تلك الصور
فيا سائلي عن أناس مضوا ... أما لك فيما ترى معتبر؟

نصيحة ابن الجوزي:

يقول ابن الجوزي: يا أخي إذا أردت أن تدري كيف حالك من بعدك فاخرج إلى القبور وانظرها وقد عفت ومثِّل قبرك بينها، ثم انظر ماذا تحتاج إليه في قبرك؟ فأكثر منه لطول مدتك فيه وهو

---

(١) أورده الألباني في السلسلة الصحيحة ح (١٢٨٨).

العمل الصالح، فأما ما سوى ذلك فإنه يصير عليك وبالًا في قبرك وحسرة، وانظر حالك الذي أنت عليه فإن كان يصلح للموت والقبر فتمادى فيه، وإن كان لا يصلح لهذين فتب إلى الله منها، وارجع إلى ما يصلح [(١)].

ومن رحلات الحقيقة:

٢- رحلة التعرف على الدنيا:

قال ﷺ: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة، ما سقى كافرًا منها شربة ماء**»[(٢)].

فالدنيا لا قيمة لها عند الله ﷻ، والذي يراها على حقيقتها يأنف منها ويزهد فيها، ويجافيها، وتنصرف رغبته عنه، ولقد وصفها رسول الله ﷺ بأوصاف عجيبة منفرة، تضعها في حجمها الصحيح داخل نفس المسلم، وتدفعه للتعامل معها بما تستحق.

قال ﷺ: «**إن الله تعالى جعل ما يخرج من بنى آدم مثلًا للدنيا**»[(٣)].

---

(١) بستان الواعظين لابن الجوزي، ص ٢٦٨ – دار الكتاب العربي – بيروت.

(٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

(٣) حسن أخرجه الإمام أحمد والطبراني، وأورده الألباني في صحيح الجامع ح (١٧٣٩).

وأخرج ابن المبارك في الزهد عن سلمان قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ قال: **ألكم طعام؟** قال: نعم، قال: **أتنظفون وتطبخون وتقزحون**[1]؟ قال: نعم، قال: **وتفعلون؟** قال: نعم، قال: **ولكم شراب؟** قال: نعم، قال: **أتبردون وتنظفون وتقزحون؟** قال: نعم، قال: **فأين معادهما؟** قال: الله ورسوله أعلم، قال: **فإن معادهما كمعاد الدنيا؛ يقوم أحدكم خلف بيته فيمسك على أنفه من نتن ريحه**[2].

انظر إلى دنياك:

ويحكي لنا بكر بن عبد الله المزني حكاية عجيبة تؤكد ما قاله ﷺ عن الدنيا وحقيقتها، فقد أخبره رجل بأنه صحب كعب الأحبار إحدى عشرة سنة، فلما حضرته الوفاة قال: إني صحبتك إحدى عشرة سنة، أريد أن أسألك عن شيء وإني أهابك.

قال: سل عما بدا لك. قال: أخبرني ما بال ابن آدم إذا قام من طوفه – أي غائطه – رد بصره فنظر إليه؟ قال: والذي نفس كعب بيده، لقد سألتني عن شيء أنزله الله ﷻ في التوراة على موسى:

---

(١) من القزح وهو التابل الذي يوضع في القدر كالكمون.
(٢) رواه الطبراني ورجاله صحاح. قاله الهيثمي (١٠ / ٢٨٨).

انظر إلى دنياك التي تجمع [1].

هوان الدنيا:

ولأن الدنيا بهذا الهوان وهذه الحقارة، فلقد كان رسول الله ﷺ حريصًا على تبليغ هذه الرسالة لأصحابه، ولأمته من بعده، من خلال زهده فيها، وكثرة حديثه عنها، ووصفها بأوصاف منفرة، وربط هذا الحديث بالواقع كلما سنحت الفرصة.

فعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مر بالسوق والناس كنفتيه – أي عن جانبيه – فمر بجدي أسك ميت، فتناوله، فأخذ بأذنه، ثم قال: «**أيكم يحب أن يكون هذا له بدرهم**»؟ فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء وما نصنع به؟ ثم قال: «**أتحبون أنه لكم**»؟ قالوا: والله لو كان حيًا كان عيبًا، إنه أسك فكيف وهو ميت! فقال: «**فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم**»[2].

تخيل معي مدى تأثير هذا البيان العملي على الحاضرين، وكيف سيظل عالقًا في أذهانهم فترة طويلة؟!

وهذا ما نريد أن نفعله.. مشاهدة الدنيا على حقيقتها.

---

(١) التواضع والخمول لابن أبي الدنيا، ص ٢٠٥.
(٢) رواه مسلم، وأسك أي صغير الأذن.

بيان عملي آخر:

يقول المستورد بن شداد:

كنت مع الركب الذين وقفوا مع رسول الله ﷺ على السخلة الميتة، فقال رسول الله ﷺ: «**أترون هذه هانت على أهلها حتى ألقوها**» قالوا: ومن هوانها ألقوها يا رسول الله، قال: «**فوالذي نفس محمد بيده، الدنيا أهون على الله من هذه على أهلها**»[(١)].

ولقد أخرج ابن أبي الدنيا في الزهد عن الحسن قال: مر رسول الله ﷺ على مزبلة في طريق من طرق المدينة فقال: «**من سره أن ينظر إلى الدنيا بحذافيرها فلينظر إلى هذه المزبلة**».

فمن خلال هذه المواقف وغيرها تربى الصحابة – رضوان الله عليهم – على الزهد في الدنيا، وانصراف الرغبة عنها.

عن الحسن البصري قال: مر عمر على مزبلة فاحتبس عندها، فكأنه شق على أصحابه وتأذوا بها، فقال لهم: هذه دنياكم التي تحرصون عليها[(٢)]. وكان بشير بن كعب كثيرًا ما يقول لأصحابه: انطلقوا حتى أريكم الدنيا، فيجيء بهم إلى الشرق وهي يومئذ

---

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، والسخلة: ولد معز أو ضأن.
(٢) الزهد للإمام أحمد ص ١١٨.

مزبلة، فيقول: انظروا إلى دجاجهم، وبطهم، وثمارهم [1].

فلنحرص على القيام بمثل هذه الزيارات كل فترة لنتأمل فيها الدنيا ونراها على حقيقتها، فنأنف منها، ويخرج حبها من قلوبنا.

ليس من الزهد:

الزهد في الدنيا ليس معناه تركها بالكلية، بل معناه عدم حبها أو تعلق القلب بها، ومعناه كذلك انصراف الرغبة عنها، وهذا لا يتنافى مع الغنى ولا يتلازم مع الفقر.

سئل الإمام أحمد عن الرجل يكون معه ألف دينار هل يكون زاهدًا؟

قال: نعم، على شريطة ألا يفرح إذا زادت، ولا يحزن إذا نقصت.

فليس الزاهد من لا مال عنده، وإنما الزاهد من لم يشغل المال قلبه وإن أوتى مثل ما أوتى قارون، فكم من فقير معدم يملأ قلبه حب الدنيا، وكم من غني واسع الثراء لم تشغل الدنيا قلبه كعبد الرحمن بن عوف ﷺ، والذي كان أحد أثرياء الصحابة، ومع ذلك لم يكن يعرف من بين عبيده من شدة تواضعه وزهده في الدنيا.

---

(١) الزهد لابن أبي الدنيا، رقم ٦٢.

قال أبو سليمان: كان عثمان وعبد الرحمن بن عوف خازنين من خزان الله في أرضه، ينفقان في طاعة الله، وكانت معاملتهما لله بقلوبهما [١].

وليس من الزهد ترك ما أباحه الله لنا من الطيبات، فلم يكن هذا من هدى رسول الله ﷺ ولا صحابته الكرام، وقد كانوا كما نعلم من أزهد الناس وأقربهم إلى الله.

يقول ابن الجوزي: ومن تأمل حالة رسول الله ﷺ رأى كاملًا من الخلق، يعطى كل ذي حق حقه، فتارة يمزح وتارة يضحك، ويداعب الأطفال، ويسمع الشعر، ويتكلم بالمعارض، ويحسن معاشرة النساء، ويأكل ما قدر عليه وأتيح له، وإن كان لذيذًا كالعسل، ويستعذب له الماء، ويفرش له الظل، ولم ينكر ذلك [٢].

وقد كان ﷺ يأكل ما وجد، فإن وجد اللحم أكله، ويأكل لحم الدجاج، وأحب الأشياء إليه الحلوى والعسل، وما نقل عنه أنه امتنع عن مباح [٣].

---

(١) جامع العلوم والحكم للحافظ ابن رجب، ص ٥٥٦ ، ٥٥٧ – دار ابن الجوزي – السعودية.

(٢) صيد الخاطر لابن الجوزي، ص ٣٠٦ – دار اليقين – المنصورة – مصر.

(٣) المصدر السابق، ص ٦٦.

الزهد من أعمال القلوب:

الزهد في الدنيا من أعمال القلوب، فهو كما يقول ابن رجب: تفريغ القلب من الاشتغال بالدنيا ليتفرغ لطلب الله ومعرفته، والقرب منه، والأنس به، والشوق إلى لقائه[(١)].

كان أبو سليمان يقول: لا تشهد لأحد بالزهد، فإن الزهد في القلب[(٢)].

من هنا يتضح لنا أن الدنيا لا ينبغي أن يكون لها موضع في قلب المؤمن، بل في يده يستخدمها في طاعة الله، والقرب منه، قال سفيان الثوري: كان من دعائهم: اللهم زهدنا في الدنيا، ووسع علينا منها، ولا تزوها عنا فترغبنا فيها[(٣)].

فإن قلت: ولماذا إذن رحلات الذهاب إلى المزابل، وما شابه ذلك؟

نعم هذا مطلوب لكي يخرج حب الدنيا من قلوبنا، ويصغر حجمها في أعيننا، وتشتد رغبتنا فيما عند الله ﷻ، فآفتنا هي حب الدنيا كما قال تعالى: ﴿**بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ**

---

(١) جامع العلوم والحكم، ص ٥٥٨.
(٢) المصدر السابق، ٥٥٤.
(٣) المصدر السابق، ص ٥٤٧.

﴿وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧]، فإن كنت في وشك من هذا فما عليك إلا أن تتبع اهتماماتك وتطلعاتك، وتنظر إلى ما يفرحك أو يحزنك أو يثير قلقك لتدرك هذه الحقيقة.

حقيقة ذم الدنيا:

قد يقول قائل: إن هناك آيات وأحاديث كثيرة وردت في ذم الدنيا، وفي نفس الوقت نجد آيات وأحاديث أخرى تطالبنا بالسعي في الأرض وعمارتها والانتفاع بقوانين التسخير فيها.

يجيب عن هذا التساؤل ابن رجب، فيقول رحمه الله: واعلم أن الذم الوارد في الكتاب والسنة للدنيا ليس هو راجعًا إلى زمانها الذي هو الليل والنهار المتعاقبان إلى يوم القيامة، فإن الله جعلهما خلفة لمن أراد أن يتذكر أو أراد شكورًا.

وليس الذم راجعًا إلى مكان الدنيا الذي هو الأرض التي جعلها الله لبني آدم مهادًا وسكنًا، ولا إلى ما أودعه الله فيها من الجبال والبحار والأنهار والمعادن، ولا إلى ما أنبته فيها من الشجر والزرع، ولا إلى ما بث فيها من الحيوانات وغير ذلك، فإن ذلك كله من نعم الله على عباده بما لهم فيها من المنافع، ولهم من الاعتبار، والاستدلال على وحدانية صانعه وقدرته وعظمته، وإنما الذم راجع إلى أفعال بني آدم الواقعة في الدنيا، لأن غالبها واقع على غير

الوجه الذي يحمد عاقبته، بل يقع على ما تضر عاقبته أو لا تنفع، كما قال ﷻ: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ**﴾ [الحديد: ٢٠] (١).

* * *

(١) جامع العلوم والحكم، ص ٥٤٩، ٥٥٠.

الوسيلة الثالثة
مداومة الإنفاق في سبيل الله

مما لا شك فيه أن المال هو أهم رمز من رموز الدنيا، فهو في نظر الناس الوسيلة الأكيدة لتحصيل ما يريدون تحصيله من حاجات أو ملذات أو شهوات، ولقد جبلت النفوس على حبه والشح به. قال تعالى: ﴿**وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا**﴾ [الفجر: ٢٠].

وعلى عكس الكثير من شهوات الدنيا، فإن شهوة المال لا تنطفئ أبدًا، فكلما كثر المال وتنامى ازداد النهم تجاهه، كالنار كلما زيد في وقودها اشتد اشتعالها، يقول ﷺ: «**لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب**» [(١)].

من هنا تظهر قيمة الإنفاق في سبيل الله كعلاج أكيد لحب الدنيا والتعلق بها ﴿**وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [التغابن: ١٦].

---

(١) متفق عليه.

ولأن الإنفاق دواء ناجح وفعال لطرد الدنيا من قلوبنا، فلا عجب أن نجد اهتمام القرآن الكريم به وكثرة الحديث عنه، وترغيب الناس فيه، وإبراز قيمته، وأن مقصده ليس فقط مساعدة الفقراء والمساكين وتجهيز المجاهدين في سبيل الله، بل أيضًا لمساعدة أنفسنا، وفك أسرها من الشح المجبولة عليه، فالشح مفتاح كل شر، ومن شأنه أن يدفع صاحبه إلى الحرص والتشبث بالدنيا.

قال أبو الهياج الأسدى: رأيت رجلًا في الطواف يدعو: اللهم قني شح نفسي، لا يزيد على ذلك شيئًا، فقلت له: أما تدعو بغير هذه الدعوة؟ فقال: إذا وقيت شح نفسي لم أسرق، ولم أزن، فإذا بالرجل عبد الرحمن بن عوف [1].

أهمية المداومة على الإنفاق:

لكي ننتفع بهذا الدواء الرباني علينا المداومة على الإنفاق في سبيل الله بصورة يومية، ولو بأقل القليل، وإن بلغ شق تمرة، وكلما انشغل الواحد منا بشيء من الدنيا فليبادر بالإنفاق، وكلما كثرت الهموم، وازداد الخوف من الفقر والمستقبل المجهول فعلينا بالإنفاق.

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤ / ٣٠٥).

وكلما خفنا على ما معنا من أموال فلنكثر من الإنفاق، فنحن بذلك نحقق العديد من الفوائد منها: سكون النفس وطمأنينتها، وراحة البال، فالمال يشكل أهم أسباب تكاثر الهموم على العبد، وبكثرة الإنفاق منه تخمد الخواطر، وتزول الهموم.

قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [البقرة: ٢٧٤].

قلب المرء مع ماله:

ومن الفوائد المهمة للإنفاق: تعلق القلب بالآخرة.

أخرج ابن المبارك في الزهد عن عبد الله بن عبيد قال: جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ما لي لا أحب الموت! قال: **هل لك مال؟** قال: نعم يا رسول الله! قال: **فقدم مالك بين يديك**. قال: لا أطيق ذلك يا رسول الله! قال: **فإن المرء مع ماله، إن قدمه أحب أن يلحقه، وإن خلفه أحب أن يتخلف معه**[(١)].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: أيكم استطاع أن يجعل في السماء كنزه

(١) الزهد لابن المبارك رقم ٦٣٤.

فليفعل؛ حيث لا تأكله السوس ولا تناله السرقة، فإن قلب كل امرئ عند كنزه [1].

فلنكثر من الإنفاق في سبيل الله، ولنبكر بذلك علنا ننال نصيبًا من دعاء الملائكة.

قال ﷺ: «**ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان؛ فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا**»[2].

* * *

(١) الزهد لابن المبارك رقم ٦٣٣.
(٢) متفق عليه.

الوسيلة الرابعة
الاقتصاد في المعيشـــة

فمع المداومة على الإنفاق في سبيل الله، علينا كذلك القصد والتوسط في نفقاتنا على متطلبات معيشتنا في الدنيا، قال ﷺ: «**ثلاث منجيات: خشية الله في السر والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الفقر والغنى**»[1].

فلنحرص على عدم التبذير، أو البحث عن كل جديد من كماليات يمكن الاستغناء عنها ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا**﴾ [الفرقان: ٦٧].

معنى التبذير:

يقول الشافعي: التبذير إنفاق المال في غير حقه، ولا تبذير في عمل الخير، ويقول ابن عباس: من أنفق مائة ألف في حق فليس بسرف، من أنفق درهمًا في غير حقه فهو سرف، ومن منع من حق عليه فقد قتر[2].

---

(١) حسن، رواه الألباني في صحيح الجامع، ح (٣٠٣٩).
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٣/ ٤٩).

فعلى كل منا أن يعطى كل ذي حق حقه، فلا يسرف، ولا يقتر، وذلك في كل أحواله.

والملاحظ أن بعض الناس عندما تتيسر أرازقهم، ويكثر المال في أيديهم، ويزيد عن حاجاتهم، تراهم ينجرفون في تيار الإسراف، فكلما أعجبهم شيء اشتروه، وكلما اشتهوا طعامًا أحضروه، ظانين أن ذلك من حقهم، ولا إثم عليهم طالما أن المال مالهم، ولا يوجد فيه شبهة حرام.. وهذا فهم خاطئ لفقه التعامل مع المال، فكما أننا مطالبون بجمعه من حلال، علينا كذلك بإنفاقه في موضعه الصحيح، فمن الأسئلة التي ستوجه للعبد يوم القيامة: من أين اكتسب المال وفيم أنفقه؟ كما أخبرنا بذلك رسول الله ﷺ.

انظر إلى من هو دونك:

لعل من أهم الأسباب التي تدفع المسلم إلى عدم رضاه عن حاله، وتطلعه لما في يد الآخرين، هو نظره الدائم لمن فضله الله عليه في الرزق، سواء كان التفضيل في المال أو الشكل، أو الجاه، أو العافية، أو غير ذلك من صور التميز الدنيوي، ولقد أرشدنا رسول الله ﷺ إلى العلاج العملي الناجع لمثل هذه الحالة بقوله ﷺ: «**إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال والخلق، فلينظر إلى من هو**

أسفل منه» [1].

فمقارنة المرء نفسه بمن هو أسفل منه في أمور الدنيا من شأنها أن تجعله راضيًا بحاله، مستشعرًا عظيم فضل ربه عليه.

قال سلام بن أبي مطيع: دخلت على مريض أعوده، فإذا هو يئن، فقلت له: اذكر المطروحين في الطريق، اذكر الذين لا مأوى لهم، ولا لهم من يخدمهم. قال: ثم دخلت عليه بعد ذلك فلم أسمعه يئن. قال: وجعل يقول : اذكر المطروحين في الطريق، اذكر من لا مأوى له، ولا له من يخدمه [2].

***

(١) متفق عليه.

(٢) الشكر لابن أبي الدنيا، ص ٥٦ ، ٥٧ رقم (١٣٧) – مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت.

الوسيلة الخامسة

ثـــوابت في حياتنـــــــا

ما منا من أحد إلا وله ارتباطاته ومشاغله الخاصة من أمور تتعلق بحركته في الحياة كسعيه في طلب الرزق، وقضاء حوائج أهله، والقيام بحقوق الآخرين عليه.

فإذا ما ترك الواحد منا نفسه لهذه المشاغل، فإن من شأنها أن تستهلكه تمامًا، ولا تبقى له وقتًا يحسن فيه الاستعداد لآخرته، والقدوم على الله ﷻ.

فإن كان الأمر كذلك، فمتى إذن سنعمل لآخرتنا لا سيما ونحن نرى الدنيا تزداد بنا إحاطة يومًا بعد يوم؟

الحل المناسب لهذه المعادلة الصعبة يكمن في حسن تطبيق حديث رسول الله ﷺ: «**أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل**» [(١)]. بمعنى أن تكون لنا ثوابت دائمة في حياتنا تشكل الحد الأدنى الذي ينبغي أن نلتزم به، ولا نفرط فيه مهما كانت مشاغلنا.

---

(١) متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها.

وإليك أخي القارئ بعضًا من هذه الثوابت، لك أن تضيف عليها ما تشاء مما تراه مناسبًا لظروفك.

١- **الصلاة على وقتها بالمسجد:** فعلى كل منا أن يحافظ على أداء الصلوات الخمس في أول وقتها بالمسجد مع الجماعة الأولى.. قال ﷺ: «**خمس صلوات افترضهن الله ﷻ، من أحسن وضوءهن، وصلاتهن لوقتهن، وأتم ركوعهن وسجودهن، وخشوعهن كان له على الله عهد أن يغفر له، ومن لم يفعل، فليس له على الله عهد، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه**»[(١)].

وبخصوص المرأة، فلقد أخبرنا رسول الله ﷺ بأن صلاتها في بيتها أفضل من صلاتها في المسجد، فعليها أن تخصص مكانًا في بيتها تتخذه مصلى، وأن تبكر في الذهاب إليه وأداء الصلوات فيه.

٢- **التلاوة اليومية للقرآن:** ولقد مر علينا في الصفحات السابقة أهمية التلاوة اليومية للقرآن، والطريقة التي ينبغي أن نتلوه بها، فلنلتزم بذلك، ولنداوم عليه.

---

(١) صحيح، رواه مالك وأبو داود والنسائي وابن حبان في صحيحه، وأورده الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٣٩٣).

٣- **السنن الرواتب:** مع أدائنا للصلوات الخمس في أول قتها، علينا أن نلحق بها سننها المؤكدة، والتي كان الرسول ﷺ يحافظ عليها، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**من ثابر على اثنتي عشرة ركعة في اليوم والليلة دخل الجنة، أربعًا قبل الظهر، وركعتين بعدها، وركعتين بعد المغرب، وركعتين بعد العشاء، وركعتين قبل الفجر**»[(١)].

٤- **الإنفاق في سبيل الله:** علينا أن نخصص صندوقًا في البيت للإنفاق في سبيل الله، ونضع فيه صدقاتنا كل يوم ثم نخرج ما فيه كل فترة.

٥- **الذكر:** الذكر عبادة سهلة وخفيفة على اللسان، ولها أثر كبير على القلب، وثواب عظيم عند الله ﷻ.

عن أبي الدرداء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم**

(١) صحيح، رواه النسائي، وأورده الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٥٧٧).

فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى. قال: «**ذكر الله**»[1].

فلنكثر من الذكر، وليجعل كل منا لنفسه وردًا من الذكر المطلق مما حثنا عليه رسول الله ﷺ.

ومع الذكر المطلق علينا أن نحافظ على أذكار الصباح والمساء وأذكار النوم، والاستيقاظ، وسائر أذكار الأحوال المختلفة.

مع الأخذ في الاعتبار ضرورة الاجتهاد في تحريك مشاعر القلب مع ذكر اللسان حتى ننتفع انتفاعًا حقيقيًا بالذكر.

٦- **صيام ثلاثة أيام على الأقل كل شهر:** للصيام تأثير عظيم على النفس في ترويضها وجهادها على القيام بطاعة الله، فعلينا أن نحرص على القيام بهذه الوسيلة، وأن يكون الحد الأدنى في ذلك صيام ثلاثة أيام في الشهر، ففي الصحيحين عن أبي هريرة: «أوصاني خليلي ﷺ بثلاث لا أدعهن حتى أموت: صوم ثلاثة أيام من كل شهر، وصلاة الضحى، ونوم على وتر».

---

(١) صحيح، رواه الترمذي (٣٣٧٤)، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وأورده الالباني في صحيح الجامع ح (٢٦٢٩).

٧- **الاستماع إلى المواعظ، والقراءة في كتب الرقائق، وحضور دروس العلم كلما تيسر ذلك.**

فللموعظة تأثير عظيم على القلب في إيقاظه من غفلته، ودفعه لفعل الخير.

ولا ينبغي لأحد أن يتعلل بضيق الوقت، فلا يواظب على حضور مجالس الوعظ، فهناك البدائل الكثيرة، مثل المواد المسجلة، سمعية كانت أو مرئية، والتي تتوافر بفضل الله في كل مكان.

٨- **الجلوس مع الزوجة والأولاد:** ولو كل أسبوع لتعليمهم أحكام الدين، وتنظيم شئونهم، وتوجيههم لحسن التعامل مع متغيرات الحياة، فمسئولية الرجل تجاه أهل بيته ليست فقط في توفير أسباب الحياة الكريمة لهم، ولكن أيضًا بحسن توجيههم، ومتابعتهم وتربيتهم على الالتزام بأوامر الإسلام ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**﴾ [التحريم: ٦].

٩- **محاسن النفس في نهاية كل يوم:** والاستغفار والتوبة عما اقترفناه من ذنوب، وغفلات، وتقصير

في القيام بالحقوق ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

قال الحسن البصري: إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة من همته [١].

١٠- **القيام برحلة من رحلات الحقيقة:** والتي مرت علينا في الصفحات السابقة، وذلك كل فترة.

* * *

(١) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا ص ٢٥ – دار الكتب العلمية – بيروت.

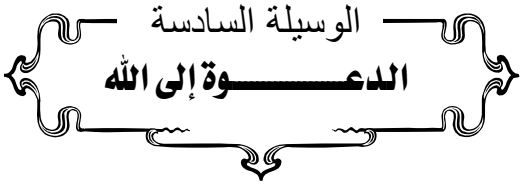

الدعوة إلى الله من الوسائل المهمة التي تعين العبد على حسن التعامل مع الدنيا، والاستعداد للموت.. لماذا؟

لأنها تذكره دومًا بما ينبغي أن يفعله، وتحفزه على العمل بما يدعو إليه خوفًا من أن يكون ممن يقول ولا يفعل فيحق عليه الوعيد ﴿**كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ**﴾ [الصف: ٣].

وقبل هذا وذاك، فإن الدعوة إلى الله من أشرف الأعمال التي يقوم بها العبد، فهي تقربه إلى الله ﷻ، وتجنبه عذابه: ﴿**قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ۞ إِلاَّ بَلاَغًا مِّنَ اللهِ وَرِسَالاَتِهِ**﴾ [الجن: ٢٢ ، ٢٣].

أنقذ غيرك:

لقد نجح إبليس في إغواء الكثير من الناس فصرفهم عن عبادة ربهم، وشغلهم بزينة الحياة الدنيا، وسار بهم في طريق يؤدي إلى النار.. فهل نتركهم وشأنهم أم نحاول إنقاذهم؟

قال ﷺ: «**لئن يهدي الله على يديك رجلًا واحدًا خير مما طلعت عليه الشمس**»[(١)].

فهل لنا يا أخي أن ننال هذا الشرف، فنعمل على دعوة من حولنا وإنقاذهم من براثن الشيطان؟ لنجتهد في ذلك، ولنبدأ بالأقربين، ولنعمل على إيقاظ الغافلين، وهداية الحائرين، وإرشاد الضالين.

مجالات الدعوة:

مجالات الدعوة إلى الله واسعة، تتسع لجميع المسلمين، فقد قال ﷺ: «**بلغوا عني ولو آية**» [(٢)].

فمن مجالات الدعوة: تذكير الناس بحقيقة الدنيا، وأنها دار امتحان، وحثهم على التوبة والعودة إلى الله.

ومنها: حث الناس على فعل الخير، فالدال على الخير كفاعله، كما قال ﷺ [(٣)].

---

(١) متفق عليه.

(٢) صحيح، رواه داود عن أبي هريرة، وأورده الألباني في صحيح الجامع، ح (٢٨٣٧).

(٣) صحيح، رواه البزار عن ابن مسعود، وأورده الألباني في صحيح الجامع، ح (٣٣٩٩).

ومنها: دعوة الناس إلى العودة للقرآن والعمل به، والانتفاع بمعجزته، والدخول في دائرة تأثيره، ودعوتهم كذلك إلى العمل على تحكيمه فيما بينهم حكامًا ومحكومين.

ومن مجالات الدعوة كذلك: حث الناس على عمارة الأرض، واستخراج كنوزها، وأن يكون للمسلمين قصب السبق في ذلك، وبخاصة في عصر كالذي نحيا فيه، حيث ارتبط اسم الإسلام في أذهان الكثيرين بالتخلف.

ومما يدعو للأسف أن الكثير من المسلمين قد فتن بالغرب بسبب ما أحرزوه من تقدم علمي، وإنما حدث ذلك عندما أحسنوا استخدام قوانين التسخير في الأرض، فانتفعوا بها، وروجوا من خلالها لباطلهم، مع أن الإسلام يحث أبناءه على السير في الأرض واكتشاف مكنوناتها إلا أن غيابه كمنهج حياة أدى إلى ما نحن فيه من تخلف، وإلا فلنعد بالذاكرة إلى الوراء لنرى كيف كان المسلمون هم أهل التقدم العلمي في شتى المجالات.

ومن أهم مجالات الدعوة التذكير الدائم بأن الله ﷻ لن يغير حال الأمة الإسلامية السيء إلى الأحسن، ولن يكف بأس أعدائها عنها؛ إلا إذا غيّر أبناؤها ما بأنفسهم ﴿**إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾ [الرعد: ١١].

الوسيلة السابعة
الصحبـــة الصالحــة

الشيطان ذئب الإنسان، وكما قال ﷺ: «**إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية**» [1]، وقال ﷺ: «**الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد**» [2].

فالشيطان أقرب ما يكون لمن يسير بمفرده مهما كانت قوته، وأبعد ما يكون عن الكثرة المتآلفة مهما كان بها من ضعف، لذلك كان التوجيه الإلهي: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**﴾ [الكهف: ٢٨].

فالصحبة الصالحة من أهم الوسائل التي تعيننا على دوام تذكر حقيقة الوجود في الدنيا، وتعيننا كذلك على حسن تطبيق ما سبق ذكره من وسائل، فالمرء يسهل عليه أن يخلف الوعد مع نفسه إذا ما

(١) رواه أبو داود بإسناد حسن.
(٢) رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

عزم على القيام بعمل ما، لكنه يصعب عليه أن يخلفه مع غيره.

التيار الجارف:

إن تيار المادية جارف، وانجذاب الناس إلى الأرض شديد، ولكي يستطيع المسلم أن يقاوم هذا كله ولا يذوب فيه؛ عليه أن يضع يده في يد من يريدون وجه ربهم، فيشد القوى منهم أزر الضعيف حتى يقوى، فالنفس لا تثبت على حال، ففيها إقبال وإدبار، وعزيمة وفتور، وفي حالات الضعف والفتور التي تنتابها يخشى على صاحبها الركون إلى الدنيا والتراجع للخلف إذا ما سار بمفرده، أما في حالة وجوده وسط صحبة صالحة، فإنهم لن يتركوه في مثل هذه الحالة، بل سيقبضون على يديه مثبتين إياه على الطريق حتى يعود إلى سابق عهده من الهمة والنشاط، ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم شديدي الحرص على تطبيق هذه الوسيلة.

فهذا عبد الله بن مسعود يقول لأصحابه: اجلسوا بنا نزدد إيمانًا[1].

وهذا عبد الله ابن رواحة يقول لصاحب له: «تعال حتى نؤمن ساعة. قال: أولسنا بمؤمنين؟ قال: بلى، ولكنا نذكر الله فنزداد إيمانًا»[2].

---

(١) شعب الإيمان البيهقي (١ / ٧٣) دار الكتب العلمية – بيروت.
(٢) المصدر السابق (١/ ٧٥).

حاملوا المسك:

قال ﷺ: «**مثل الجليس الصالح والجليس السوء، كمثل صاحب المسك، وكير الحداد، لا يعدمك من صاحب المسك، إما أن تشتريه، أو تجد ريحه، وكير الحداد، يحرق بدنك، أو ثوبك، أو تجد منه ريحًا خبيثة**»[(١)].

فلقد نبه هذا الحديث العظيم على أن حق الإنسان أن يتحرى بغاية جهده مصاحبة الأخيار ومجالستهم فهي قد تجعل الشرير خيرًا، كما أن صحبة الأشرار قد تجعل الخير شريرًا[(٢)].

فلنجتهد إذن في البحث عن الصالحين حاملي المسك فنضع يدنا في إيديهم سائرين إلى الله ﷻ.

توصيات:

لكي تؤدي هذه الوسيلة دورها في التذكير بالله، وحسن الاستعداد إلى لقائه، لا بد أن يهتم أفراد الصحبة الصالحة بتعهد بعضهم البعض من رعاية وتفقد للأحوال، ودوام التذكير بحقيقة الدنيا، والدلالة على فعل الخير، وهذا يستدعي استمرارية متابعة

---

(١) رواه البخاري كتاب البيوع – رقم ٢١٠١.

(٢) الخوف من الله تعالى لمحمد شومان، ص ١٧١ – دار القيم – الدمام.

كل منهم لغيره في تطبيق الوسائل السابقة وغيرها، والقيام بها معهم كلما تيسر ذلك.

فعلى سبيل المثال: تتواصى هذه الصحبة بقراءة القرآن بتدبر وفهم والعمل به، والدعوة إليه مع المتابعة المستمرة لذلك.

ومن خلالها يتم تدارس كتب العلم النافع التي ترغب الناس في الآخرة، وتبصرهم بأحكام دينهم، وتعرفهم بزمانهم، وتعينهم على الفهم الصحيح للإسلام.

إنها باختصار أكبر ضامن يضمن للمسلم تنفيذ الوسائل السابقة بعد الاستعانة بالله ﷻ ..

﴿ **وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴾ [العصر: ١، ٣].

***

خاتمة

وفي نهاية هذه الصفحات أذكر نفسي وإخواني بقول رسول الله ﷺ: «**ما طلعت شمس قط إلا بعث بجنبتيها ملكان يناديان، يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم، فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى**»[(١)].

فهل لنا أن نجيب دعوة الملكين ونفر إلى الله؟

فالبدار البدار قبل فوات الأوان: ﴿**اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ**﴾ [الشورى: ٤٧].

وأخيرًا نسأل الله ﷻ أن يجعل الدنيا في أيدينا، ويطردها من قلوبنا، ويقللها في أعيننا، وأن يلهمنا حسن التعامل معها، وأن يجعلنا من أبناء الآخرة، وأن يتقبل منا هذا العمل، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وإن يجزي عنا كل من ساهم معنا فيه خير الجزاء.

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، وابن حبان في صحيحه، والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

***

الفهرس

المقدمة ٣

هل نكره الموت؟

ماذا بعد الموت؟ ٧

الفصل الأول: الرحلة إلى الله

خلق الإنسان ١١
السجود لآدم ١١
عداوة إبليس ١٢
إبليس والشجرة المحرمة ١٣
الهبوط إلى الأرض ١٤
المشهد العظيم..... ١٥
بداية الاختبار..... ١٦
الدنيا دار امتحان..... ١٧
تسخير الكون..... ١٨
لا تنشغل بغير الله ١٨
طبيعة الامتحان..... ٢٠
المنهج..... ٢٠
الشريعة والحياة ٢١

التكاليف ٢٢
الإمكانات ٢٢
أيهما أفضل: العطاء أم المنع ؟ ٢٤
الملك كله لله ٢٥
دور الشيطان..... ٢٦
زمن الامتحان ٢٧
التعاون على البر..... ٢٩
الرقابة ٣٠
نهاية الامتحان ٣١
الحياة البرزخية..... ٣٣
طبيعة الحياة البرزخية ٣٤
قبر المؤمن..... ٣٥
قبر الكافر..... ٣٥
الحكم على شيء فرع عن تصوره..... ٣٦
الدنيا سجن المؤمن..... ٣٨
عملك يصحبك ٣٨
يوم الحساب ٤٠
تحطم الأرض ٤٠
النفخة الثانية..... ٤٠

يوم الندم ٤١
العرض على الله ٤٣
رد المظالم ٤٤
توزيع الشهادات ٤٥
نهاية الرحلة ٤٦
عملك يبني قصرك ٤٧
السجن ٤٩

الفصل الثاني: ماذا نفعل؟

فلنبدأ من الآن ٥٣
من وسائل حسن التعامل مع الدنيا ٥٦
الوسيلة الأولى: المداومة على قراءة القرآن ٥٦
القرآن والتغيير ٥٧
كيف ننتفع بالقرآن؟ ٥٨
أولًا: الانشغال بالقرآن ٥٩
ثانيًا: تهيئة الجو المناسب ٦٠
ثالثًا: القراءة المتأنية ٦١
رابعًا: التركيز عند القراءة ٦١
خامسًا: التجاوب مع الآيات ٦٤
سادسًا: ترديد الآية التي تؤثر في القلب ٦٤
تعلم الآيات والعمل بها ٦٥

الوسيلة الثانية: رحلات الحقيقة ٦٨
الرحلة الأولى: زيارة المقابر ٦٨
الرحلة الثانية: رحلة التعرف على الدنيا ٧٠
الوسيلة الثالثة: مداومة الإنفاق في سبيل الله ٧٩
الوسيلة الرابعة: الاقتصاد في المعيشة..... ٨٣
الوسيلة الخامسة: ثوابت في حياتنا..... ٨٦
الوسيلة السادسة: الدعوة إلى الله..... ٩٢
مجالات الدعوة ٩٣
الوسيلة السابعة: الصحبة الصالحة..... ٩٥
التيار الجارف ٩٦
خاتمة ٩٩
الفهرس ١٠١

***